9 me, année No 920

Le Caire 19 — 2 — 1951

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٩٢٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٧٠ — ١٩ فبراير سنة ١٩٥١ — السنة الثامنة عشرة »

الدين والسلوك الانسانى

— ٤ —

للاستاذ عمر حليق

شغل (دركهايم) فى إمعان وروية بالتعرف على الحقائق التى تكمن وراء القداسة والألوهية والمثل والقيم الإنسانية والمعانى الفاضلة التى تنطوى عليها

فأنكر أن المقدسات هى مجرد تعبيرات عن المؤثرات الخارجية المستمدة من البيئة والتاريخ ، كما أنكر أن تكون وليدة الوراثة بمعناها الواسع

فالقول بأن القداسة هى تعبير مستمد من البيئة والتاريخ ينفيه ما سجله (دركهايم) من أنها (أى القداسة) رمز مستمد من الغريزة الفطرية . وفوق ذلك فإن تغيير البيئة واستمرار التطور فى تاريخ الفكر لم يذهب بالرموز القدسية والحياة الدينية المعبرة عنها

والادعاء بأن القداسة هى وليدة الوراثة وما اكتسبه الفرد عن أسلافه من ذخيرة فكرية واتجاهات عاطفية وطبائع أخلاقية لا يتفق وحقيقة الواقع فى عالم عناصر الوراثة فيه واسعة متشعبة تفاعلت فيها عدة مؤثرات ثقافية وعاطفية تسربت إليها من الخارج.

ومع ذلك فقد بقى جوهر القداسة سليما فى تأثيره الروحى والاجتماعى على سلوك الإنسان

فإذا سجلنا إذن على ضوء هذا الشرح أن وراء المقدسات حقائق راسخة ، وأن هذه المقدسات (على تعدد أنواعها وألوانها) بالغة الأثر راسخة النفوذ فى السلوك الإنسانى؛ فإن لنا أن نبحث فى علاقتها بالحياة والأوضاع الاجتماعية

فالمثل والأخلاق التى تضبط سلوك الفرد تستمد سلطانها من الاختيار الدينى الذى قيد الفرد بنظم وقوانين يسير عليها فى علاقته بربه ومجتمعه. والثابت عندنا أن الله عز وجل (وهو قدس الأقداس) حقيقة راسخة ، وأن علاقة الفرد بربه علاقة منشؤها غريزة فطرية موهوبة وليست مكتسبة . فلنا إذن أن نبحث فى علاقة الاختيار الدينى بالمجتمع الإنسانى الذى وضع الله له نظما وقوانين وفيها أخلاقية

ووضع دركهايم بعد هذا الاستنتاج كلمته الشهيرة : —

« إن الله (عز وجل) هو رمز المجتمع الصالح »

وثار بعض النقاد أول الأمر على كلمة دركهايم هذه وخابت آمالهم فى رجل ابتدأ فى حماس يدافع عن روحانية الدين إزاء مادية الطبيعيين، ثم ما لبث أن خرج (فى رأيهم) باستنتاج أكثر مادية. فالمجتمع ملموس والله عز وجل حقيقة قدسية يدركها الناس بالعقيدة والإيمان فكيف يصح القول بأن الله جل جلاله رمز لدى مادى؟

وقال دركهايم وأنصاره إن هذه الثورة لا موجب لها . فالحقيقة الاجتماعية التى وضعها دركهايم ليست من الأشياء

الطبيعية التي يلمسها الناس لمسهم الصخرة والشجرة والحديد والماء؛ إنما هي « سلوك جماعي » يشترك في التعبير عنه أفراد المجتمع كما لو كانوا فرداً واحداً . وأوضح دير كهايم الفرق بين الفكر الفردي والفكر الجماعي (١) وقال بأن اختيارات الانسان الفردية الخاصة به وسلوكه النفساني والروحي يختلف عن اختياراته متضامناً متكاملا مع أفراد الجماعة التي يعيش فيها ويشاركها الخير والشر . والمجتمع في رأي دير كهايم كيان لا وجود له إلا في تفكير الفرد وشعوره

هذا الفكر الجماعي هو من أبرز ما اهتم به دير كهايم في معرض معالجته للدين والسلوك الانساني، فاختيار الجماعة عند دير كهايم حقيقة اجتماعية (٢) لا علاقة لها بالماديات التي تكلم عنها الطبيعيون

إذن فعلاقة الله عز وجل بهذه الحقيقة الاجتماعية ليست علاقة مادة ، والقيم والمثل الفاضلة التي جاءت بها التعاليم الدينية لم تقتصر على علاقة الفرد بربه وإنما شملت كذلك علاقة الكيان الاجتماعي بالعزة الإلهية ، وذلك لأن الفرد عضو في الجماعة وسلوك الإنسان منفرداً يختلف عن سلوكه متضامناً مع الجماعة

وقد ركز أكثر المصلحين من أهل التقوى والإيمان اهتمامهم إلى سلوك الانسان الفردي وأهملوا معالجة سلوكه الجماعي . ولما كان هذا السلوك الجماعي مميزاً عن السلوك الفردي بصفات واتجاهات وطبائع ومشاعر خاصة فلذلك استوجب على المصلحين أن يقوموا أكثر فأكثر على توجيه السلوك الجماعي على ضوء التعاليم السماوية . وشرح دير كهايم في حماس كيف انه جعل اهتمامه أن ينفي الصبغة الطبيعية المادية عن طبيعة السلوك الجماعي ويثبت صفاته ومميزاته الروحية

ثم ازدادت الحاجة إلى دراسة علم الدين الاجتماعي دراسة عملية وتعميمها والدعوة لنشرها ما وجد المصلحون لذلك سبيلا

وما لبث دير كهايم أن وقع فريسة التطرف في التحليل والتعليل والتعصب لآرائه شأن معظم الذين يكتشفون لونا جديداً من ألوان المعرفة فيندفعون في حماستهم دون تريث ولا إمعان. متخطين فروع المعرفة الأخرى بالرغم مما فيها من عناصر وحقائق لا تقبل جدلا ولا إنكاراً

واندفع دير كهايم في أبحاثه ينادي بما نحواه أن وظيفة الدين الاجتماعية يجب أن تفوق وظيفته الروحية ؛ وهذا ما يستدعي في نظر دير كهايم أن يتحكم علم الاجتماع في رقبة الدين وتعاليمه (١)

وقام باريتو (وهو مفكر إيطالي جليل الشأن) يصلح ما أفسده دير كهايم بطريقة غير مباشرة . فأصر باريتو في تراثه الضخم على أن سلوك الجماعة (السلوك الجماعي عند دير كهايم) ينقصه في أغلب الحالات الرشاد والإدراك الإيجابي الشامل بطبيعة الأشياء ومعانيها الكاملة . وأن من المستحيل أن يتحقق للجماعة في سلوكها الرشد المنطقي (٢) والكمال العقلي فذلك السلوك غير منطقي كما اصطلح باريتو على تسميته (٣) ولذلك فتحكم علم الاجتماع (السوسيولوجي) في رقبة السلوك الديني مناف للمنطق السليم ؛ ذلك لأن علم الاجتماع يستمد عناصره من سلوك الجماعة ويبني مبادئه واستنتاجاته عليها . وهذا السلوك كما أصر (باريتو) بينه وبين المنطق السليم صداقة مفقودة

لعل من المفيد أن نسجل هنا بأن دير كهايم أخذ فيما بعد بوجاهة هذه الآراء التي بشر بها (باريتو) فعدل من تطرفه ثم أمعن في دراسة « الحقائق المادية الملموسة » على ضوء فلسفة المعرفة ليثبت أن معرفة الناس للحقائق المادية لا يمكن أن تقرر على أساس المحسوس والملموس . وكان هدف دير كهايم أن يثبت للطبيعيين أن استشهادهم بالحقائق المادية في تهجمهم على الدين هو استشهاد باطل. فالناس لا يعرفون الأشياء بخواصها المميزة وأوصافها الطبيعية فحسب وإنما يعرفونها بالأفكار والمشاعر والإحساسات التي تؤثر بها تلك الأشياء في سلوك الفرد والمجتمع

فالفلاسفة مثلا هم على نقيض العلماء الطبيعيين من حياتهم

---

(١) represent collective, representation individuelle

(٢) fait sociale

(١) يعود هذا التطرف إلى أصل فلسفة الوضعية Positivism في دير كهايم إذ أنه وهو تلميذ « كونت » ووريث مدرسته الفكرية يعد دعامة من دعائم هذه المدرسة الفلسفية

(٢) ـ يستشهد « باريتو » بطائفة من حوادث في التاريخ الانساني وحروبه وثوراته على صدق هذا الرأي

V. Pareto . Trattato di Sociologia Generale

(٣) non-logical action

(أي الفلاسفة) شغلوا بمصادر المعرفة غافلين الطرف في أكثر الحالات عن العالم الطبيعي الذي يعيش الناس فيه

ومثل هذا الإهمال ينطبق بصورة عكسية على اتجاهات العلماء الطبيعيين الذين حصروا اجتهادهم في التعرف على الحقائق المادية في الأجسام والظواهر الطبيعية (الفيزيولوجية)

وكلا الاتجاهين ناقص في رأي دركهايم . فالكمال في البحث العلمي لا يتم إلا بالتعرف على الحقائق الاجتماعية [١] التي لا يمكن أن تعد في حساب الفلسفة وفي عداد الحقائق الطبيعية المادية لأنها ظواهر اجتماعية بينة يدرك الناس أهمية الدور الذي تطلبه في مجرى السلوك الإنساني

وفي رأي دركهايم أن الفلاسفة يستمدون مادتهم الخام من هذه الظواهر سواء اعترفوا بذلك أم لم يعترفوا

وعلماء الطبيعة لم ينصبوا على معالجة الحقائق المادية إلا ونصب أعينهم توجيه هذه الحقائق الاجتماعية نحو قسط أوفر من الكمال . والعلماء في انصبابهم على الحقائق المادية أهملوا التعرف على الحقائق الاجتماعية

هذا هو محور المنهج العلمي الذي استنبطه دركهايم فأثار إعجاب الناس . والدارس لآثار دركهايم يلمس صعوبة المدارج التي سلكها باحثا للتعرف على جوهر الدين والسلوك الانساني . فالصلة بين الروح والمادة لا تتم إلا عن طريق الحقائق الاجتماعية ، وهذه الحقائق الاجتماعية ليست في حد ذاتها مادة مجردة أو روحانية مجردة وإنما هي ظواهر تلعب دورا رئيسيا في النظام الكوني . وبترك دركهايم في بلبلة فكرية إزاء هذا المنطق اللولبي ولكنه يمضي في الدراسة والاستقراء والبحث والاستنتاج على أسس هذا المنهج العلمي وهذا المنطق اللولبي . فهو يقدر أن الفوضى في السلوك الانساني (فرديا كان أو جماعيا) لابد وأن تنتظم وتستقيم بفعل المعرفة الصحيحة للحقائق المادية . ولكن سيطرة الحقائق المادية على التفكير والسلوك الانساني لابد أن تخلق عاجلا أو آجلا نوعاً آخر من الغموض والاضطراب الروحي والنفساني ؛ ولا يحل هذه الأزمة إلا تدخل النظم الاجتماعية (أو الحقائق الاجتماعية في لغة دركهايم . والناحية الاجتماعية في التعاليم الدينية من الأهمية بمكان عظيم لأنها تقوم بعمل مزدوج ؛ فهي تعزز الغريزة الروحية من جهة ، وتصون الحقائق الاجتماعية من جهة أخرى . فإذا تسنى لرجال الدين والذين يحملون لواء الدعوة له أن يضيفوا إلى تراث الدين الروحي والاجتماعي مادة جديدة تستمد إقناعها من الحقائق المادية سياسية كانت أو اقتصادية أو تكنولوجية فانهم يساهمون بالقسط الأكبر في تنظيم السلوك الانساني تنظيما سليما يحقق سعادة الدارين

وأصبح دركهايم سعيدا حين رأى المفكرين من رجال الدين والفلاسفة والعلماء في أوائل هذا القرن على وجه الخصوص يتجهون أكثر فأكثر لدراسة هذا الثالوث من الحقائق الروحية والمادية والاجتماعية ، الأمر الذي دفع إلى الطليعة أهمية علم الاجتماع الديني في التفكير والسلوك الانساني . وهذا الاتجاه يزداد أهمية وضرورة بازدياد الصراع بين المذاهب السياسية والاقتصادية المعاصرة التي جرت على المجتمع الانساني ويلات الحروب وشر التفكك الاجتماعي ومرارة البلبلة الفكرية والنفسانية التي يعانيها المثقفون في هذا العالم المضطرب بما فيه الشرق العربي

ونعمة مزية أخرى في مكانة الدين والدور الذي يؤديه في السلوك الانساني ، وأعني به « النظام » وما ينطوي عليه من استقرار روحي وفكري ومادي . وما تضارب النظم السياسية والاقتصادية المعاصرة شيوعية كانت أو رأسمالية أو فاشيستية إلا لاختلافها عن أوجه التنظيم وأسس المبادئ والوسائل التي تحقق النظام والاستقرار

فالنظم الديكتاتورية — وهي وليدة استياء المصلحين من بطء النحو التقدمي للمجتمع وضعف الأداة لتحقيق النظام ومن ثم الإصلاح والتقدم والرفاهية — فاشلة في محاولتها هذه كما أثبت ذلك التاريخ الحديث والقديم لأنها وهي وليدة السلوك الفردي تحاول أن تكون تعبيرا للسلوك الجماعي . وشتان بين السلوكين كما أخبرنا دركهايم

والديمقراطية [١] في نظامها الحالي تدعي باطلا أنها تعبير

١ — راجع المقالة السابقة من هذا البحث في عدد الأسبوع المحرم من الرسالة

١٦ - ٣٦

١ — نعني بالديمقراطية هنا النظم السياسية والاقتصادية المعاصرة التي تناوئ النظم الديكتاتورية